حفظ الله لمقام نبيه ﷺ

انظروا إلى حفظ الله لنبيه وصفيه ﷺ، فرغم أن الله رفع قدره وأعلى شأنه في كتابه إلى حدود لا يتحملها بشر، فقال: (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) [٨٠ النساء]. وأخرى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) [٥٤ النور]. وحذّر: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [٦٣ النور]. ويقول: (وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ) [٦٢ التوبة].

ورغم كل هذه الرفعة والشأن العلي! لكن حفظه الله في كل الأزمنة وإلى يوم الدين، بأنه لا يوجد مسلم قطّ قد رفعه عن رتبة العبودية أو أدخله دائرة الإلوهية، فمهما يمدحه أي مسلم، أو يُثنى عليه أي عالم، فتكون نهاية المدح عبدٌ لله!! لكن حضرة الإلوهية لا يوجد أحدٌ منا يدخله أو يشركه ﷺ فيها، لأن الله عزَّ وجلَّ عندما رفع قدره وأعلى شأنه مدحه بالعبودية:
(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) [١الإسراء]، (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) [١الفرقان]، (ا ْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) [١الكهف].

هذه قضية بديهية، فكل المسلمين مهما يرفعون شأنه فإنهم يتبعون رفعة شأنه التي في كتاب الله والتي بيَّنها الله، وفي النهاية عبدُ الله ورسولُه!! نحن لا نقول في الصلاة: (أشهد أن مُحَمَّداً رسول الله) ولكن نقول في الصلاة أثناء التشهد: (أشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله) مَن الذي علَّمنا هذا الأدب العالي؟ هو سيدنا رسول الله ﷺ.

لكن بشريته ﷺ كان لابد منها حتى نتعلم منها، لأن الله إذا أنزل ملكاً من السماء فلن نراه ولن نسمعه! إذاً كيف سنتعلم منه؟! فلابد أن يكون بشراً، ولكنه بشرٌ معه الوحي من خالق القُوَى والقُدَر، ولكي يتحمل نزول الوحي والاتصال بالملأ الأعلى لابد أن تكون بشريته أعلى وأرقى من سائر البشر!! فلابد من الله أن يصفِّيه ويرقِّيه ويعليه حتى يكون له شأنه، وتصبح بشريته ملائمة لهذه الأعباء وتلك التكليفات التي فوق طاقة البشر!! وخذوا أمثلة على ذلك وهي واضحة وثابتة بيِّنة:

كان ﷺ إذا مشى لا يُرى له ظل : (ذكر ذلك القاضي عياض في الشفاء ٢٦٨/١، وقال السيوطي: أخرج ا كيم الترمذي عن ذكوان أن رسول الله ﷺ لم يكن له ظل في شمس ولا قمر. انظر: الخصائص الكبرى ٦٨/١؛ ومناهل الصفا ص ١٧٣.).!! من فينا ليس له ظل؟! الذي ليس له ظل هو النور، فكان ﷺ إذا مشى لا يُرى له ظل!!.وفي وصفه ﷺ الذي اشتهر وانتشر قال سيدنا هند بن أبي هالة: {كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخْمًا مُفَخَّمًا، يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ تَلأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ } (المسند الجامع عن ا سن بن على وغالب كتب السنة وا لديث).

وورد في وصفه ﷺ: {إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رئى كالنور يخرج من ثناياه}.، وقال أبو هريرة ﷺ:{ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر}، و قال جابر بن سمرة؛ وقال له رجل: كان وجهه ﷺ مثل السيف؟ قال:{لا، بل مثل الشمس والقمر}. (الشفا بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض مجموعة من كتب ا لحديث).

رأوا ا لحقيقة التي جمَّله الله بها، والتي عيَّرَ الكافرين بسببها فقال عزَّ وجلَّ: (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) [١٩٨الأعراف]. لا يرون الفضل الذي منحه الله لك!! فيرونه مثلهم!! يأكل ويشرب مثلهم!! مع أنه ﷺ حتى في أكله وشربه ليس مثلنا!، لأنه ﷺ كان يصوم صيام الوصال، فكان لا يأكل أو يشرب لمدة أسبوع أو أكثر!! ولكنه كان يقول: {إني لست مثلكم، إني أظل عند ربي فيطعمني ويسقيني} (مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ).